التفسير بين شرف المطلب ووعورة المسلك

د.طه عابدين طه حمد (★)

المقدمة :

الحمد الله الذي أنزل إلينا خيرَ الحديث ، وأصدقَه، وأكملَه، وأعدلَه، وجعلَه للحياةِ نوراً مبيناً، وللرسالةِ برهاناً ودليلاً، وللمؤمنين ملاذاً أميناً، وللجنةِ قائداً وبشيراً، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرةِ الرد، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل .« حرسه بعين منه لا تنام ، وحاطه بركن منه لا يضام ، لا تهي[1] على الأيام دعائمه، ولا تبيد على طول الأزمان معالمه، ولا يجور عن قصد المحجة تابعه ، ولا يضل عن سبل الهدى مصاحبه »[2]، ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3]

والصلاةُ والسلامُ على الذي أُنزلَ على قلبهِ الطاهر النور المبين ، والصراط المستقيم ، المشرفُ بقولهِ تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[4]، وعلى آلهِ الطاهرين ، وصحبهِ الصادقين ، ومن سارَ على دربهم إلى يومِ البعثِ والدين .

أولاً : أهمية الموضوع وأسباب اختياره :

ـ انصراف هممُ كثير من الناس اليوم عن تعلم معاني القرآن الكريم، وتدبر آياته، والاكتفاء بتلاوةِ الحروف، حتى تضاعفَ أعدادُ القراءِ في العالمِ، وقلَّ الفقهاءُ لمعانيهِ، وأصبحَ في عرفِ العوام أنَّ أهلَ القرآنِ هم حفظتُه، وإن لم يفقهوا من معانيهِ

(★) أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك بجامعة أم القرى – مكة المكرمة

(1) تضعف ، انظر لسان العرب ، ابن منظور (6/ 4936) مادة (وهي) .

(2) جامع البيان ، ابن جرير الطبري (51/1) .

(3) المائدة: ١٦ .

(4) الشورى:٥٢

شيئاً، وإن لم يعملوا بأحكامه وهديه، وأصبح هَمُّ القارئ كثرة القراءة رجاءَ ثوابُ تلاوةِ الحروف، وهمُّ الحفاظِ تثبيت الكلماتِ لا تدبر المعاني، والعمل بأحكامه، وقلَّ أثرُ القرآنِ في القلوب والحياة حتى رأينا من يحفظ القرآن الذي يحملُ عشرات الآيات التي تدعو إلى توحيدِ الله ؛ ويعبدُ غير الله. ورأينا من يدعي أنه فقيه يفتي الناس على ما تعلمه من المتونِ والحواشي المذهبية ، وهو أجهل الناس بفقه القرآن الكريم ، بل قلَّ الحديثُ والكتابةُ أيضاً عن أهميةِ فهمهِ وتدبره ، فترى في المدينة الواحدة عشرات الدروس العلمية ، وقل ما تجد درساً في تفسير القرآن الكريم ، حتى أصبحَ بعضُهم يعتقدُ صعوبة فهمهِ ومعرفة معانيهِ ، مع أنه كتابٌ مبين ، ميسرٌ في التلاوةِ والفهمِ والعمل، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[1].

كما أن بعضُهم يجهل أهمية التدبر وفهم الخطاب القرآني فلا يضعه في سلم أولويات التعلُّم ، وبعضهم أقبل على تعلمه لكن بدون هُدى ، فهذا الحال يتطلب إبراز مكانة التفسير وشرفه ، حتى يقبل المسلم على تعلمه ببصيرة ويقين وصبر، خاصة ونحن في حاجة ماسة لهدايات القرآن في علاج ما تعانيه أمتنا اليوم من أزمات ، ومشاكل عديدة ، تفرض علينا الرجوع للقرآن الكريم، والاستشفاء بهديه القويم، فجاء الحديث في هذا البحث في بيان شرف التفسير وأهميته حتى تكون الانطلاقة في هذا العلم عن بصيرة تقوى بها العزائم ، وقد جمعت لهذا الهدف ضمن هذا البحث ما تناثر من أدلة وأقوال أهل العلم بما يندر أن تجد مثله شمولاً واختصاراً .

ــ القرآن الكريم ، هو خير الكلام وأعظمه ، فقد بلغ من الحُسن تمامه، ومن البلاغة كمالها، ومن الهدى أعلاه، فهو كتاب علومه لا تنقضي ، وعجائبه لا تنتهي ، مهما كتب فيه الكاتبون وبحث في معانيه الباحثون . كما الكلام في تفسير الكريم عظيم ؛ لأنَّه الرواية عن الله تبارك وتعالى الذي يؤدي القول فيه بغير علم إلى ضلال وإضلال . كما أن الذين تصدروا لتفسير القرآن الكريم في غالبهم من أفذاذ العلماء مما جعل بعض التفاسير فوق قدرات الكثير من الناس في لغتها وأسلوبها البياني . كما أن تنوع مصادر التفسير في مناهجها واتجاهاتها وأهدافها وأساليبها من مفسر لآخر، ومن عصر لعصر ، ومن بلد لآخر صعب حتى على بعض طلاب العلم التعامل معها والاستفادة منها. فكانت الحاجة ملحة اليوم لمعرفة الصعوبات الحقيقية التي تواجه طلاب التفسير , ودراستها حتى يحسنوا استيعابها والتعامل معها ، وهي صعوبات لم

([1]) القمر:17

أقف على من جمعها وتحدث عنها.

بناء رؤية متوازنة في تعلم القرآن الكريم ، من خلال التنبيه عن قبح الإعراض عن تدبره وتعلم معانيه ، أو الخوض فيه بغير علم وهدى، فتفسير القرآن الكريم ليس بالأمر السهل الذي يتجرأ إليه كل أحد ، بل هو من الأمور الصعبة ، لأنه متعلق بكلام الله الذي تنتهي فيه العلم والحكمة ، وهو محاط بكل جوانب الجلال والهيبة ، فالكلام فيه دون الرجوع إلى علماء التفسير البارزين ، أو التعامل مع مؤلفاتهم دون معرفة بمناهجهم واتجاهاتهم، أو الاعتماد على قول من لم تتوفر فيه شروط الأهلية التي اشترطها العلماء لمن يريد أن يتكلم في كتاب الله تعالى من أعظم مهالك الدين ، كما أن الإعراض عن فهمه وتدبره مهلك آخر ينبغي علاجه، فإن التفسير تضرر من معرضين عن الفهم ، أو متهافتين على الخوض في تفسير كلام الله دون علم ومعرفة لقدرهم ومؤهلاتهم ، فتكلمت في هذا البحث عن شرف تعلم التفسير في المبحث الأول ، ثم تكلمت في المبحث الثاني عن وعورة مسلكه ليسير الناس في طلبه على بصيرة من أمرهم كما سار سلفنا الصالح ، فلم تبعدهم صعوبة تعلمه عن فهمه وتدبره، وإنما أبعدتهم عن القول على الله بغير علم ، وعظم عندهم القول في التفسير ؛ لأنه الرواية عن الله تعالى .

ثانياً : أهداف البحث :

يهدف البحث إلى خلق توازن علمي للمقبلين على تعلم التفسير ، فيدفعهم شرف تعلمه للإقبال عليه ، وتمنعهم وعورة مسلكه من الاندفاع فيما ليس لهم به علم . ويعرف كيف يحسن التعامل مع ما سوف تقابله من صعوبات ، فيصل لهدفه المنشود، ويتجنب مزالق الطريق. وحتى تتحقق هذه الأهداف جاء هذا البحث بعنوان : "التفسير بين شرف المطلب، ووعورة المسلك".

ثالثاً : الدراسات السابقة:

لم أقف ـ في حدود علمي ـ على بحث أو كتاب تحدث بصورة دقيقة شاملة عن شرف علم التفسير وأهميته، والصعوبات التي تواجه المفسر اليوم بالطريقة التي جاءت في هذا البحث.

رابعاً : منهج البحث وأداته:

استخدم الباحث في هذه الدراسة المنهج التحليلي عن طريقة أسلوبي الاستقراء والاستنباط, وكانت أداته تحليل المحتوى للأدلة ذات الصلة بالموضوع ، التي جمعت من خلال ما كتبه العلماء في هذا الفن من الكتابات القديمة والحديثة بغية الوصول إلى أهداف البحث.

خامساً : هيكل البحث :

قسمت هذا البحث إلى مقدمة ، ومبحثين ، وخاتمة ، جاءت مباحثه على النحو التالي :

المبحث الأول: شرف علم التفسير وأهميته .

المبحث الثاني: صعوبات في تعلم تفسير القرآن الكريم .

وفي ختام هذه المقدمة فإني أسال الله الإخلاص والتوفيق ، وأرجو بفضله البركة والقبول، باسمه ابتدئ ، وعليه أتوكل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم .

المبحث الأول

شرف علم التفسير وأهميته

هنالك الكثير من العلوم المهمة في الحياة؛ ولكن أهمها على الإطلاق ما به الفلاح الدنيوي والسعادة السرمدية . فالقرآن الكريم مصدرُ الهدى، وآيةُ الرسالة، والعروة الوثقى للباحثين عن الفوز والنجاة، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [1] ، وقد ظلت الأمةُ تنهلُ من ينبوعهِ على مر العصور دونَ أن ترتويَ من فيضهِ الزاخر، براهينُهُ حجج قاطعة ، وهداه وعلومهُ شفاء النفوس ورحمتها، ولفهمه وتفسيرهِ أهمية خاصة ، ومكانة عالية ، لا غنى لمسلمٍ عنها ، ولا سبيلَ إلى الحقِ والهدى بدونها، فهو أشرف العلوم تعلماً، وأعظمها أجراً ونفعاً؛ لأن موضوعه كلام الله ، خير الكلام ، وغايته فهم مراد الحق المتعال حسب طاقة العباد ، وتظهرُ أهميةُ فهم القرآن وشرف تعلمه من وجوهٍ عديدةٍ أبرزُها ما جاء في المطالب الآتية :

المطلب الأول : الاستجابة لأمر ﷻ بتدبر كتابه العزيز :

أمر اللهُ عبادَه بفهمِ وتدبر كتابهِ المجيد، والأمة آثمة إن لم تستجب لأمر ربها، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [2] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [3] ، وقال تعالى: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ

([1]) النحل:٨٩

([2]) النساء:٨٢

([3]) محمد:٢٤

ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾[2] . قال الزركشي ــ رحمه الله ــ: « القرآنُ كلُّه لم ينزله مُنزله تعالى إلا ليُفْهمَهُ، ويُعْلم ويُفْهَم, ولذلك خاطبَ به أولي الألباب الذين يعقلون, والذين يعلمون، والذين يفقهون، والذين يتفكرون؛ ليدبروا آياتهِ, وليتذكر أولوا الألباب»[3]. وقال تعالى:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[4]. قال القرطبيُّ ــ رحمه الله ــ: « وفي هذا دليلٌ على وجوبِ معرفةِ معاني القرآن »[5]، وقال السَعديُّ ــ رحمه الله ــ: « ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي: هذه الحكمةُ من إنزالهِ ، ليتدبرَ الناسُ آياتهِ فيستخرجوا علمَها ويتأملوا أسرارَها وحكمَها ، فإنه بالتدبر فيهِ والتأمل لمعانيه، وإعادةِ الفكر فيها مرةً بعد مرة تدركُ بركتُه وخيره، وهذا يدلُ على الحثِ على تدبر القرآن ، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءةَ المشتملة على التدبر أفضلَ من سرعةِ التلاوةِ التي لا يحصلُ بها هذا المقصودُ»[6] . وقال ابنُ القيم ــ رحمه الله ــ: «ولهذا أنزلَ اللهُ القرآن ليتدبر , ويتفكر فيه, ويعملُ به, لا لمجردِ التلاوةِ مع الإعراض عنه»[7], وقال في مدارج السالكين: « وأما التأملُ في القرآن فهو تحديقُ ناظر القلبِ إلى معانيهِ , وجمعُ الفكر على تدبرهِ وتعقلهِ هو المقصودُ من إنزالهِ ؛ لا مجرد التلاوة بلا فهمٍ , ولا تدبر»[8].وقال

([1]) يوسف:1-2

([2]) فصلت:3

(3) البرهان في علوم القرآن (160/2) .

([4]) ص: 29

(5) الجامع لأحكام القرآن (8/ 163) .

(6) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، (ص :712) .

(7) مفتاح دار السعادة ، (ص :215) .

(8) (ج485/1) .

الشوكانيُّ ــ رحمه الله: «وفي الآيةِ دليلٌ على أن اللهَ سبحانه إنَّما أنزلَ القرآنَ للتدبر والتفكر في معانيهِ ؛ لا مجرد التلاوةِ دونَ فكر»[1]، وقال الحسنُ البصري ــ رحمه الله ــ :« واللهِ ما أنزلَ اللهُ آيةً إلا أحبَّ أن يُعلمَ فيما أنزلت، وما يعنى بها »[2]، وقال ابنُ تيمية ــ رحمه الله ــ:«ومن المعلوم أنَّ كلَّ كلامٍ فالمقصودُ منه فهم معانيهِ دون مجردَ ألفاظهِ , فالقرآنُ أولى بذلك , وأيضاً فالعادةُ تمنعُ أن يقرأ قومٌ كتاباً في فنٍ من العلمِ كالطبِ والحسابِ ولا يستشرحوه , فكيفَ بكلامِ الله الذي هو عصمتُهم , وبه نجاتُهم وسعادتُهم , وقيامُ دينهم ودنياهم؟!»[3].

ولأهميةِ الفهم جاءَت السنة مؤكدة ومبينة على نفس المعنى الذي ذكر في القرآن الكريم ، فعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنْ اللَّيْلِ فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنُ عَلَى لِسَانِهِ فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ فَلْيَضْطَجِعْ)[4] قال النووي: ــ رحمه الله ـ ـ «ينبغي للقارئ أن يكونَ شأنُهُ الخشوعَ والتدبرَ والخضوعَ؛ فهذا هو المقصودُ المطلوب، وبه تنشرحُ الصدور، وتستنيرُ القلوب ، ودلائلهُ أكثرُ من أن تحصى، وأشهرُ من أن تذكر »[5].

فالواجبُ على الناس فهم خطابِ الله الموجه إليهم من ربهم ، ومعرفةِ الطرق السليمةِ الموصلةِ لحسن فهمه، وبذلك يتحقق لهم الهدى فلا يضلون، وتكتمل لهم السعادة فلا يشقون كما تحققت للأوائل يوم أن فهموا القرآن وعملوا به ، وأن تفريط الأمة في هذا الواجب جر عليها كل بلية وضلال ، قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا

---

(1) فتح القدير (430/4) .
(2) الجامع لأحكام القرآن (1/ 37) ، وفتح القدير ، للشوكاني (1/ 14) .
(3) مجموع الفتاوى (13/ 332) .
(4) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها،باب:أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن ح رقم 131.
(5) التبيان في آداب حملة القرآن (ص: 20) .

وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [1].

المطلب الثاني : تحقق مقصد القرآن الأول ((الهداية ونيل الخيرية)):

القرآن الكريم قد جمعَ الخيرَ، وهدى في الحياةِ كلِّها للتي هي أقوم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [2] ، فلا يمكن أن ينال هداه وخيريته من كان بعلمه جاهل ، وعن تدبره غافل ، ومن اقتصر على الحفظ دون الفهم لم يحقق مطلوبه ومقصوده من تعلم القرآن ؛ وذلك لأن الفهم السليم سبيل العمل المستقيم، فالمقصدُ الأساسي الذي صيغت ألفاظُ القرآن الكريم لأجلِهِ فهم معانيه، ولتهتديَ الأمةُ بهديهِ في الإيمانِ والعملِ الصالحِ ، للوصول لحياةٍ طيبةٍ ونفسٍ مطمئنة ، قال إياسُ ابن معاوية ــ رحمه الله ــ: « مثلُ من يقرأ القرآن, ومن يعلمُ تفسيرَه أو لا يعلم، مثل قومٍ جاءهم كتابٌ من صاحبٍ لهم ليلاً، وليس عندهُم مصباح، فتداخلهم لمجيء الكتاب لا يدرون ما فيه، فإذا جاءهم المصباح عرفوا ما فيه» [3]، وقال ابن تيمية ــ رحمه الله ــ:«والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه والعمل به ، فإن لم تكن هذه همة حافظه لم يكن من أهل العلم والدين ، والله سبحانه أعلم »[4] ، وقال القرطبي ــ رحمه الله ــ وهو يتحدث عن ما ينبغي أن يتصف به أهل القرآن : « ينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه فينتفع بما قرأ ويعمل بما يتلو، فما أقبح بحامل القرآن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم معنى ما يتلوه، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه ، وما أقبح به أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه ، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا »[5] ، وقال ابنُ القيم ــ رحمه الله ــ : « فلا شيء أنفع للقلب من قراءةِ القرآنِ بالتدبر والتفكر؛ فإنه جامعٌ لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقاماتِ العارفين , وهو الذي يورث المحبة والشوق, والخوف والرجاء, والإنابة والتوكل , والرضا والتفويض , والشكر والصبر, وسائر الأحوال التي بها حياةُ القلبِ وكمالُه , وكذلك يزجرُ عن جميع الصفاتِ والأفعال المذمومة ؛ والتي بها فسادُ القلبِ وهلاكه , فلو علم الناس ما في قراءةِ القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كلّ ما سواها , فإذا قرأه بتفكر حتى مرَّ بآيةٍ وهو محتاجٌ إليها في شفاءِ قلبهِ كررها

([1]) طه: ١٢٣ ــ ١٢٤

([2]) الإسراء:9

(3) الجامع لأحكام القرآن (37/1) ، وزاد المسير ، ابن الجوزي (1/ 4) .

(4) مجموع الفتاوى لابن تيمية (23/ 55) .

(5) الجامع لأحكام القرآن (1/ 21) .

ولو مائة مرة , ولو ليلة , فقراءةُ آيةٍ بتفكر وتفهمٍ خيرٌ من قراءةِ ختمةٍ بغير تدبر وتفهم, وأنفعُ للقلبِ وأدعى إلى حصول الإيمان وتذوق حلاوة القرآن, وهذه كانت عادةُ السلفُ يرددُ أحدُهم الآية إلى الصباح, وقد ثبت عن النبيّ ﷺ أنه قامَ بآيةٍ يرددها حتى الصباح وهي قوله: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [1]، فقراءةُ القرآن بالتفكر هي أصلُ صلاح القلب»[2].

فلا بقاءَ للإسلامِ إلا بفهمِ القرآنِ فهماً صحيحاً ثم العملُ به، فهو أمنُ الأرواح وشفاؤها، وغيثُ القلوبِ وربيعُها، ونورُ العقول وهداها ، وآيةُ الرسالةِ الكبرى ، وأساسُ الهدى والرحمة ، وبه صلاح الدنيا وفوز الآخرة .

ومن هنا فقد جعلَ الله تدبرَ كتابه من صفاتِ عباده، والإعراض عن فهمهِ من صفاتِ أعدائه، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [3]، يعني يقرءون الكتاب دون علم بما فيه ، قال مجاهد ــ رحمه الله ــ: «إن الأميين الذين وصفهم الله تعالى أنهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى شيئاً»[4]، قال ابن تيمية ــ رحمه الله ــ: «فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة على ما أصله هو من البدع الباطلة، وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني ، وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن, ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه»[5].

وشبههم الله بالحمار يحمل أسفارا ، قال تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [6] ، قال القرطبي ـ رحمه الله ـ : «وفي هذا تنبيه من الله ﷻ لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء»[7] . وكانت من صفات الكفار عدم فقه كتابه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ

([1]) المائدة:118

(2) مفتاح دار السعادة (1/ 187).

([3]) الفرقان:٧٣

(4) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (1/ 381) .

(5) درء تعارض العقل والنقل (1/ 77) .

([6]) الجمعة:5

(7) الجامع لأحكام القرآن (64/18).

جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾[1] ، وقال تعالى عن الكافرين: ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾[2] .

المطلب الثالث : إحياءُ سنةُ النبيّ ﷺ والسلف الصالح مع القرآن الكريم :

قد كان هدي النبي ﷺ والسلف الصالح مع القرآن الكريم تعلم ما فيه من علم وعمل ، فكانوا لا يتجاوزون آيةً إلا بعدَ فهمها ؛ بل والعملُ بها . فخيرُ طريقةٍ في التعامل مع القرآنِ الكريم ما كان عليه النبيُّ ﷺ وأصحابُه الكرام ، وما تزال الأمة بخير ما ترسمت هدي نبيّها ﷺ الذي أُمرت بالاقتداءِ به، وقد كان ﷺ يقرأ القرآنَ بترسلٍ، وتدبر كامل وكان هذا هو منهج أصحابه ،كما جاء عن ابن مسعود ﷺ قال:(كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهنَّ حتى يعرف معانيهنَّ والعمل بهن)[3]. وقال أبو عبد الرحمن السُّلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ـ كعثمان بن بن عفان رضي الله عنه، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيرهما ـ أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل . قالوا: (فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً)[4]، وفي رواية (لم نتعلم العشر التي بعدها بعدها حتى نعرف حلالها, وحرامها, وأمرها, ونهيها)[5]، وعن ابْن أَبِي مُلَيْكَةَ قال:إِنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ كانَتْ لا تَسْمَعُ شَيْئًا لا تَعْرِفُهُ إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: (فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا)؟ قَالَتْ: فَقَالَ: إِنَّمَا ذَلِكِ الْعَرْضُ؛ وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكْ)[6]،وعن مسروق ــ رحمه الله ــ قال:« كان ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها , ويفسرها عامة النهار» [7].

وهم قد بيَّنوا منهجهم في تعلمه، وأكدوا عليه في العمل، كما قال ابن مسعود: (لاَ تَهُذُّوا الْقُرْآنَ كَهَذِّ الشِّعْرِ ، وَلاَ تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، وَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ

([1]) الإسراء: ٤٥ – ٤٦

([2])النساء:٧٨

(3) أخرجه ابن ماجة في المقدمة ص61 ، والطبري في تفسيره (95/1) ، والبيهقي في شعب الإيمان ح رقم 1801 ، والحاكم في المستدرك (557/1) وصححه ووافقه الذهبي .

(4) رواه الطبري في تفسيره جامع البيان بإسناده حسن (95/1) .

(5) الجامع ا لأحكام (51/1) .

(6) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب العلم ، باب : من سمع شيئاً فلم يفهمه فراجع فيه ح رقم 100.

(7) جامع البيان (60/1) .

الْقُلُوبَ، لاَ يَكُونُ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ)[1]. وعَنْ أَيُّوبَ عَنْ أَبِي حَمْزَةَ قَالَ: قُلْتُ لاِبْنِ عَبَّاسٍ : إِنِّي سَرِيعُ الْقِرَاءَةِ ، إِنِّي أَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي ثَلاَثٍ. قَالَ: (لأَنْ أَقْرَأَ الْبَقَرَةَ فِي لَيْلَةٍ فَأَتَدَبَّرُهَا وَأُرَتِّلُهَا أَحَبُّ إِلَىَّ أَنْ أَقْرَأَهَا كَمَا تَقْرَأُ)[2] . وعَنْ الأَعْمَشِ عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ نَهِيكُ بْنُ سِنَانٍ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ كَيْفَ تَقْرَأُ هَذَا الْحَرْفَ أَلِفًا تَجِدُهُ أَمْ يَاءً (مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ) أَوْ (مِنْ مَاءٍ غَيْرِ يَاسِنٍ) قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَكُلَّ الْقُرْآنِ قَدْ أَحْصَيْتَ غَيْرَ هَذَا ؟ قَالَ : إِنِّي لأَقْرَأُ الْمُفَصَّلَ فِي رَكْعَةٍ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هَذَا كَهَذِّ الشِّعْرِ؟ إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ)[3]، ولا يقعُ في القلبِ إلا بفقه معناه، وقال الحسنُ بن علي رضي الله عنهما: «إن من كان قبلكم رأوا القرآنَ رسائلَ من ربهم فكانوا يتدبرونَها بالليل، ويتفقدونَها في النهار»[4] . وقال مجاهدُ- رحمه الله -: «أحبُ الخلقِ إلى اللهِ تعالى أعلمَهم بما أنزل»[5] . وقال الحسن البصري - رحمه الله -: «انزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً»[6] ، وغيرها من أقوال كثيرة جاءت تؤكد منهجهم القائم على العناية بالفهم ، وفي هذا يقول ابن تيمية ــ رحمه الله -: « أَنَّ الْعَادَةَ الْمُطَّرِدَةَ الَّتِي جَبَلَ اللَّهُ عَلَيْهَا بَنِي آدَمَ تُوجِبُ اعْتِنَاءَهُمْ بِالْقُرْآنِ - الْمُنَزَّلِ عَلَيْهِمْ - لَفْظًا وَمَعْنًى ؛ بَلْ أَنْ يَكُونَ اعْتِنَاؤُهُمْ بِالْمَعْنَى أَوْكَدَ ، فَإِنَّهُ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ مَنْ قَرَأَ كِتَابًا فِي الطِّبِّ أَوْ الْحِسَابِ أَوْ النَّحْوِ أَوْ الْفِقْهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّهُ لاَبُدَّ أَنْ يَكُونَ رَاغِبًا فِي فَهْمِهِ وَتَصَوُّرِ مَعَانِيهِ فَكَيْفَ بِمَنْ قَرَءُوا كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى الْمُنَزَّلَ إلَيْهِمْ الَّذِي بِهِ هَدَاهُمْ اللَّهُ، وَبِهِ عَرَّفَهُمْ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ وَالْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَالْهُدَى وَالضَّلاَلَ وَالرَّشَادَ وَالْغَيَّ. فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ رَغْبَتَهُمْ فِي فَهْمِهِ وَتَصَوُّرِ مَعَانِيهِ أَعْظَمُ الرَّغَبَاتِ؛ بَلْ إذَا سَمِعَ الْمُتَعَلِّمُ مِنْ الْعَالِمِ حَدِيثًا فَإِنَّهُ يَرْغَبُ فِي فَهْمِهِ؛ فَكَيْفَ بِمَنْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ مِنْ الْمُبَلِّغِ عَنْهُ؛ بَلْ وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ رَغْبَةَ الرَّسُولِ

---

(1) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ح رقم 3903 ، وابن أبي شيبة في مصنفه ح رقم 8825 ، قال ابن حجر : " وهذا منقطع بين النخعي والصديق ، وأخرج أيضا من طريق إبراهيم التيمي أن أبا بكر سئل عن الاب ما هو؟ فقال : أي سماء تظلني فذكر مثله . وهو منقطع أيضا لكن أحدهما يقوي الآخر " فتح الباري (9/ 457) .

(2) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ح رقم 3142، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص 74 ، و الآجري في أخلاق حملة القرآن ح رقم 84، وذكره ابن كثير في فضائل القرآن ص 236 ، وقال محققه أبو إسحاق الجويني : إسناده صحيح .

(3) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: ترتيل القراءة واجتناب الهذ وهو الإفراط ح رقم 1358 .

(4) التبيان في آداب حملة القرآن (ص : 28) .

(5) البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي (22/1) ، والجامع لأحكام القرآن ، القرطبي (37/1) .

(6) مفتاح دار السعادة , (ص :260 ــ 261) .

ﷺ فِي تَعْرِيفِهِمْ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ أَعْظَمُ مِنْ رَغْبَتِهِ فِي تَعْرِيفِهِمْ حُرُوفَهُ فَإِنَّ مَعْرِفَةَ الْحُرُوفِ بِدُونِ الْمَعَانِي لَا تُحَصِّلُ الْمَقْصُودَ إذ اللَّفْظُ إنَّمَا يُرَادُ لِلْمَعْنَى » [1].

والمؤسف حقاً أن كثيراً من الناس اليوم يقرأ القرآن بلسانه دون أن يعي قلبه معانيه، ويغفلون عن هذه المعاني العظيمة التي مارسها السلف وأكدوا عليها في تعاملهم مع القرآن الكريم.

المطلب الرابع : العصمة من مصائد الشيطان:

إنَّ الشيطانَ أضلَّ فرقاً قديمةً وحديثة عن طريق فهم القرآن الكريم وتفسيرهِ ، فمنهم من شغلهم بحروفه عن معانيه ، ومنهم من جعلهم يحملون معانيه إلى ما يوافقُ أهواءهم؛ لأنَّ القرآنَ لا يستطيعُ أحدٌ أن يغيرَ أو يبدلَ في ألفاظهِ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢ ﴾ [2]، ولكن يقعُ التبديلُ والتحريفُ والتغييرُ في فهمِ المعاني، فإنَّ الخوارجَ وأهلَ الأهواءِ ما ضلوا إلا من سوءِ فهمهم لمعاني القرآن الكريم، كما جاء في حديث جابر بن عبد اللهﷺ قال: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْجِعْرَانَةِ مُنْصَرَفَهُ مِنْ حُنَيْنٍ وَفِي ثَوْبِ بِلَالٍ فِضَّةٌ وَرَسُولُ ﷺ يَقْبِضُ مِنْهَا يُعْطِي النَّاسَ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ اعْدِلْ. قَالَ : (وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ) فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ : دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَقْتُلَ هَذَا الْمُنَافِقَ فَقَالَ : (مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي ، إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ)[3] . وفي رواية حذيفة (لا تعيه قلوبهم).قال الإمام النووي ــ رحمه الله ــ:« قال القاضي فيه تأويلان: أحدهما: معناه: لا تفقهه قلوبهم, ولا ينتفعون بما تلوا منه, ولا لهم حظ سوى تلاوة الفم والحنجرة والحلق؛ إذ بهما تقطع الحروف. والثاني: معناه: لا يصعد لهم عمل ، ولا تلاوة ، ولا يتقبل »[4].

فمن هنا تظهرُ أهميةُ المنهج القويم الذي كان عليه السلفُ الصالحُ في فهمِ

---

(1) مجموع الفتاوى (5/ 157) .

(2) فصلت :41-42

(3) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن ، باب : إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به, رقم 4004 ، 6880 ، ومسلم , كتاب الزكاة , باب : ذكر الخوارج وصفاتهم , رقم 1761 , 1762 .

(4) صحيح مسلم بشرح النووي (141/7) .

القرآن الكريم دونَ إفراطٍ يحملُ النصوصَ ما لا تحتمل، أو تفريطٍ في فهمِ المعاني التي جاءت فيه؛ وذلك من خلال معرفةِ منهج العلماء الراسخين في هذا المجال، وما قعَّدوه من أصولٍ وقواعد وضوابط ، ومن رسخت قدمه في فهم القرآن على نهج السلف الصالح كان له ذلك عصمة ووقاية من شياطين الجن والإنس، لأنه منبع كل علم هادي ، وأصل كل حكمة عادلة ، وفي القرآن الكريم الشفاء الكامل لكل داء يضعه الشيطان في قلب المؤمن من أمراض الشبهات أو الشهوات، قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[2] ، قال ابن القيم ـــ رحمه الله ـــ: «إن جماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات والقرآن شفاء للنوعين ، ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه ، وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية : من التوحيد ، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد، والنبوات، ورد النحل الباطلة، والآراء الفاسدة مثل القرآن، فإنه كفيل بذلك كله متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها وأقربها إلى العقول، وأفصحها بيانا، فهو الشفاء على الحقيقة من داء الشبه والشكوك ؛ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عيانا

([1]) يونس:٥٧

([2]) الإسراء:٨٢

بقلبه كما يرى الليل والنهار ... وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة ، بالترغيب والترهيب، والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة ، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار ، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده ، ويرغب عما يضره ، فيصير القلب محبا للرشد مبغضا للغي ، فالقرآن مزيل للأمراض الموجهة للإرادات الفاسدة »[1] .

المطلب الخامس: السلامةُ من هجر القرآن الكريم :

إنَّ من أعظمَ الذنوبِ التي حذرنا الله منها هجر القرآن ، ومن أعظمَ أنواع هجرهِ هجر تدبره , وتفهمِ معانيه ؛ لأنَّ المقصودَ من تلاوتهِ فهمه لأن الفهمَ قائدُ العمل، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾[2] ، قال ابن القيم ــ رحمه الله ــ : « هجرُ القرآن أنواع, ذكر منها: هجرُ تدبرهِ وتفهمه ومعرفةِ ما أرادَ المتكلم به منه »[3] ، وقال الشنقيطي ــ رحمه الله ــ: « إن كلَّ من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي تصفحِها , وتفهمها, وإدراكِ معانيها , والعمل بها فإنه معرضٌ عنها غيرُ متدبر لها, فيستحقُ الإنكارَ والتوبيخَ المذكور في الآياتِ إن كان اللهُ أعطاه فهماً يقدرُ به على التدبر ، وقد شكا النبيُّ ﷺ إلى ربهِ من هجر قومه هذا القرآن ، فإن من تلاه بدون فهم فهو واقع في هجرانه ؛ لأنه لم يتلوه حق تلاوته التي لا تكتمل إلا بالفهم والعمل ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[4].فهذه الآياتُ المذكورة تدلُ على أن تدبرَ القرآن وتفهمَه وتعلمَه والعملَ به أمرٌ لابدَ منه للمسلمين ، وأن المشتغلين بذلك هم خيرُ الناس ... وإن إعراضَ كثيرٌ من الأقطار عن النظر في كتابِ الله وتفهمهِ والعمل به وبالسنةِ الثابتةِ المبينةِ له , من أعظمَ المناكر وأشنعِها، وإن ظنَّ فاعلُوه أنهم على هدى، ولا

---

(1) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (1/ 65،66) .

(2) الفرقان:30

(3) الفوائد (1/ 82) .

(4) البقرة:121

يخفى على عاقلٍ أن القولَ بمنع العمل بكتابِ اللهِ وسنةِ رسولهﷺ اكتفاءً عنهما بالمذاهبِ المدونةِ وانتفاءَ الحاجةِ إلى تعلمِهما لوجود ما يكفي عنهما من مذاهبِ الأئمة من أعظمَ الباطل ، وهو مخالفٌ لكتابِ الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة ومخالفٌ لأقوال الأئمة الأربعة »[1]، فجانب الفهم مهم؛ لأن بدونه يقل ثواب التلاوة ، ويؤدي إلى بقية أنواع الهجر ، خاصة هجر العمل بأحكامه .

المطلب السادس : زيادةُ الإيمان والهدى :

من أعظم أسباب زيادة الإيمان والهدى تعلم معاني القرآن الكريم والقربِ من بركتهِ وأنواره التي محا الله به ظلماتُ الجاهلية ، قال تعالى في صفات عباده: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[2]،ولذا قال شيخُ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ في قوله ﷺ«:(خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ)[3] . تعلم حروفهُ ومعانيه، بل تعلم معانيه هو المقصودُ الأول من تعلم حروفه، وذلك الذي يزيد الإيمان»[4] . قال ابن القيم ــ رحمه الله ــ: « فليس شيءٌ أنفعُ للعبدِ في معاشهِ ومعادِه, وأقربُ إلى نجاتهِ: من تدبر القرآن, وإطالةِ التأمل, وجمع فيه الفكر على معاني آياته؛ فإنها تطلعُ العبدَ على معالمِ الخير والشر بحذافيرها. وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتتل في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في القلب وتشيد بنيانه وتوطد أركانه ، وتريه صورة الدنيا والآخرة ، والجنة والنار في قلبه وتحضره بين الأمم وتريه أيام الله فيهم ، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله وما يحبه وما يبغضه وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد

(1) أضواء البيان (7/ 257) .

(2) الأنفال:٢

(3) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن ، باب : خيركم من تعلم القرآن وعلمه ح رقم 4639 .

(4) مجموع الفتاوى (13/ 304) .

الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها وتعرفه النفس وصفاتها ومفسدات الأعمال ومصححاتها وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه, وافتراقهم فيما يفترقون فيه، تعطيه فرقاناً يفرق به بين الهدى والضلال، والغي والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه وحياة وسعة وانشراحاً وبهجة وسروراً فيصير في شأن والناس في شأن آخر...فلا تزال معانيه تنهض بالعبد إلى ربه...وتهديهِ في ظلمِ الآراءِ والمذاهبِ إلى سواءِ السبيل، وتصدَّه عن اقتحامِ طرقِ البدعِ والأضاليل...وتثبت قلبَه عن الزيغِ والميل عن الحق ..وتناديه كلما فترت عزماته وواني في سيره...إلى أن قال: وفي تأمل القرآن وتدبرهِ وتفهمهِ أضعافُ أضعافُ ما ذكرنا من الحكمِ والفوائد»[1].

فهو يزيد الإيمان الذي يتحقق معه زيادة الهدى علماً وعملا؛ لأن المسلم يقف من خلال تدبره على عظمةِ كلامِ الله وجمالهِ وحسنه، بصورةٍ تجعله لا يفرحَ قلبُه إلا في رياضهِ، ولا تطمئنُ نفسُه إلا في حياضهِ، وصدقَ الحقُ إذ يقول عن الجن عندما سمعوا القرآن وفهموه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾[2].

المطلب السابع :نيلُ ما ورد في فضل تعلم القرآن الكريم من أجرٍ وثواب :

تعلم القرآن الكريم من أعظم القربات لله تعالى، وينال العبد من تعلمه من الأجر والثواب ما لا يجده في تعلم غيره ؛ لأنه تعلم لخير العلوم وأزكاها وأرفعها وأنفعها ، فهو سببٌ لكلّ خير وصلاح ، ولا يكتمل ذلك الأجر الذي ورد في أحاديث كثيرة إلا بعد فهم معانيه ، كما جاء عَنْ عُثْمَان ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ)[3]، وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: (أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ

(1) مدارج السالكين (485/1 - 487) .

(2) الجن:1 – ٢

(3) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن، باب : خيركم من تعلم القرآن وعلمه ح رقم 4639 .

فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلا قَطْعِ رَحِمٍ ؟ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ : نُحِبُّ ذَلِكَ ، قَالَ:(أَفَلا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ وَثَلاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنْ الإِبِل)[1]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (... وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ،وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ)[2]، قال الشوكاني ــ رحمه الله ــ: « واعلم أن الأحاديث في فضائل القرآن كثيرة جدا ولا يتم لصاحب القرآن ما يطلبه من الأجر الموعود به في الأحاديث الصحيحة حتى يفهم معانيه ؛ فإن ذلك هو الثمرة من القراءة »[3].

المطلب الثامن : تحقيق العلاجُ الشافي لقضايا الأمة الفردية والجماعية :

القرآن الكريم جعله الله شفاءً دائماً لمشكلات وقضايا أمتنا المتجددة عبر الزمان من خلال فهمه وتدبره؛ ومعرفةِ حكمه، والوقوفِ على أسراره، والعمل بأحكامه، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[4] .قال ابن القيم ــ رحمه الله ــ : «فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط ؛ أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أشجع في إزالة الداء من القرآن»[5]. ويقول الأستاذ سيد قطب ــ رحمه الله ــ: «في القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة . فهو يصل القلب بالله فيسكن ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن; ويرضى فيستروح الرضى من الله والرضى عن الحياة; والقلق مرض, والحيرة نصب, والوسوسة داء . ومن ثم هو رحمة للمؤمنين .

وفي القرآن شفاء من الهوى والدنس والطمع والحسد ونزعات الشيطان.. وهي من آفات القلب تصيبه بالمرض والضعف والتعب, وتدفع به إلى التحطم والبلى والانهيار. ومن ثم هو رحمة للمؤمنين. وفي القرآن شفاء من الاتجاهات المختلة في الشعور والتفكير. فهو يعصم العقل من الشطط, ويطلق له الحرية في مجالاته المثمرة, ويكفه عن إنفاق طاقته فيما لا يجدي, ويأخذه بمنهج سليم مضبوط, يجعل نشاطه منتجا ومأمونا. ويعصمه من الشطط والزلل. وكذلك هو في عالم الجسد ينفق طاقاته في

---

(1) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين ، باب : قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه ح رقم 1909.
(2) أخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ح رقم 4867.
(3) فتح القدير (1/ 13) .
(4) الإسراء:٨٢
(5) التفسير القيم ، لابن القيم (2/ 31).

اعتدال بلا كبت ولا شطط فيحفظه سليما معافى ويدخر طاقاته للإنتاج المثمر. ومن ثم هو رحمة للمؤمنين. وفي القرآن شفاء من العلل الاجتماعية التي تخلخل بناء الجماعات, وتذهب بسلامتها وأمنها وطمأنينتها فتعيش الجماعة في ظل نظامه الاجتماعي وعدالته الشاملة في سلامة وأمن وطمأنينة. ومن ثم هو رحمة للمؤمنين»[1]. فهو كتابٌ لا تنقضي علومه وأسراره، ولا تنقطع بركته، ولا يخبو نوره، فهو كتابُ الزمانِ مع تجددِه، والمكانُ على امتدادِه، والشفاءُ لكلّ داءٍ مع تنوعهِ على مر العصور، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾[2]، فالحاجةُ للقرآن الكريم مع تطور الحياة اليوم وتعقدها من خلال مزيد الفهم لمعانيه مستمرة بل وزائدة ، فهو نور وشفاء ورحمة لا تستغني عنه الأمة في يوم من الأيام ، ولا يمكن التوصلُ لنوره وهداه وشفائه وخيرهِ وبركتهِ إلا من خلال فهمه ، قال تعالى: ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[3]، قال مجاهد ــ رحمه الله ــ: «الحكمةُ: فهمُ القرآن»[4]. وقال تعالى: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (المائدة:15-16) ، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمًا ﴾ (النساء: 174-175). فهذه أدلة قاطعة في بيان أثر القرآن في هداية الأمة وإنقاذها مما هي فيه، فلا طريقَ للفلاحِ بسواه، ولا وصولَ إلى دار السلام إلا على هداه، ولذا حثَّ اللهُ كلَّ مسلمٍ على تدبر معاني القرآن الكريم، وتعقلُ دلالاته وهداياته، فهو علم الحاجة إليه اليوم كبيرة لإصلاح واقعنا وحياتنا الفردية والجماعية .

---

(1) في ظلال القرآن (5/ 43).

(2) يونس:57-58

(3) البقرة:٢٦٩

(4) تفسير البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي (1/ 340) .

وفي الختام أقول : يكفي في شرف التفسير وأهميته أنه أفضل صناعة يتعاطها الإنسان كما قال الإمامُ الأصفهاني ـــ رحمه الله ـــ: «إنَّ أشرفَ صِنَاعَةٍ يتعاطاها الإنسانُ: تفسيرُ القرآن؛ بيانُ ذلك أن شرفَ الصِّنَاعَةِ إمَّا بِشَرَفِ مَوْضُوعِهَا ... وَإمَّا بِشَرَفِ غَرَضِهَا مِثْلَ صناعةِ الطبِّ ... لأن غرضَهُ إفَادةُ الصحةِ ...وإما لشدةِ الحاجةِ إليها : كالفقهِ فإن الحاجة إليه أشدُّ من الحاجة إلى الطب ؛ إذ ما من واقعة من الكون ... إلا وهي مفتقرةٌ إلى الفقهِ لأنَّ بِهِ انتظام صلاح أحوال الدنيا والدين ، بخلافِ الطبِّ ، فإنَّهُ يحتاجُ إليهِ بعضُ النَّاس في بعض الأوقاتِ: إذا عُرفَ ذلك فصناعةُ التفسير قد حازتِ الشرفَ من الجهاتِ الثلاثِ :

أما من جهةِ الموضوع : فلأن موضوعه كلامُ الله تعالى الذي هو يَنبُوعُ كلّ حكمةٍ ومعدنُ كل فضيلةٍ "فيه نبأُ ما قبلكُم وخبرُ ما بعدكم وحكمُ ما بينكم لا يخلَقُ على كثرةِ الرَّدِّ، ولا تنقضي عجائبُهُ".

وأما من جهة الغرض: فلأن الغرضَ منه هو الاعتصامُ بالعروةِ الوُثقى والوصولُ إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى.

وأما من جهة شِدَّةِ الحاجةِ: فلأن كلَّ كمالٍ دينيٍّ أو دُنيويٍّ عاجلٍ أو آجلٍ: مفتقرٌ إلى العلومِ الشرعيةِ والمعارفِ الدينيةِ وهي متوقفةٌ على العلمِ بكتابِ اللهِ تعالى »(1)

المبحث الثاني
صعوبات في تعلم تفسير القرآن الكريم

تعلمُ ودراسة التفسير، والتخصصُ في علوم الكتاب المصون ليسَ بالأمر السهل، بل ربما كان من أعظم المطالب ، قال الحسن البصري ـــ رحمه الله ـــ: « علم القرآن ذكر لا يعلمه إلا الذكور من الرجال»[2] ؛وذلك لعدةِ أسباب، تتلخص في الجملة في ثلاثة محاور: المحور الأول : متعلق بالمصدر المُفَسر. والثاني: بالمصادر التي فسرت القرآن الكريم . والثالث: بالأدوات التي لابد أن يمتلكها المفسر، وهي جوانب العلم بها مهم لطلاب علم التفسير، حتى يضعوها نصب أعينهم فيشمروا في طلبهم العظيم ، ويعبرون إلى هدفهم السامي عبر هذه الصعوبات بيسر ، فإليك بيان هذه المحاور من خلال المطالب الثلاثة التالية:

المطلب الأول : عزة وكرامة الكلام المُفَسر:

(1) الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي (465/2) ، لم أجده فيما لدي من كتبه .
(2) البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي (340/1) .

هنالك صعوبات ملازمة للمفسر مهما كان علمه وتجربته في علم التفسير؛ وذلك لعزة وكرامة المصدر المفسر، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾[1]، فهو كتاب عزيز لغلبة حجته ؛ ولأنه غالب بالفضل لما سواه من الكتب ، ولكثرة نفعه وانعدام نظيره ، فقد عجز الخلق عن الإتيان بمثله . وعزيزٌ لعزة من تكلم به ، وعزة القرآن عنده ، ولعزته على من أنزل عليه ، وأنزل إليهم ؛ إذ فيه هداهم وشفائهم ، وعزيز بإعزاز الله إياه ، وحفظه من كل من أراد له تبديلاً أو تحريفاً ، أو تغييراً ، من إنسي وجني وشيطان مارد [2].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ [3]أي: عظيم المنافع ، كثير الخير، غزير العلم ، شريف القدر ، كرمه الله تعالى ورفعه على سائر الكتب ، وجمع فيه أمهات الحكم والأحكام ، وكريم لما حوى لكل ما يحمدُ ويستحسنُ ، كريم بمصدره وكريم بذاته وكريم باتجاهاته[4] .

قال أبو حيان : « وكريم : وصف مدح ينفي عنه مالا يليق به »[5] . وعزة وكرامة كلام الله المفسر ترتبط صعوبته في ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : عظمة المصدر المفسر :

فهو كلام الله ﷻ ، خير الحديث، وأحكمه ، وأبينه ، فعظمته مأخوذة من عظمة من تكلم به ، فلا أعظم من الله ﷻ ، ولا أجل ولا أعظم ولا أقدس من كلامه سبحانه ، قال تعالى : ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [6]، فهو كلام قد بلغ في البلاغة نهايتها، وفي الحسن

([1]) فصلت:41

(2) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن (479/21)، والبحر المحيط (479/7)،والجامع لأحكام القرآن (15/ 367) ، والدر المنثور ، للسيوطي (498/11) ، وفتح القدير ، للشوكاني (519/4) ، والتحرير والتنوير (23/ 314) .

([3]) الواقعة: ٧٧

(4) انظر: زاد المسير ، ابن الجوزي (151/8)، وفتح القدير ، الشوكاني (160/5) ، تيسير الكريم الرحمن (7/ 198) .

(5) البحر المحيط (8/ 213).

([6]) طه:٤ - ٨

غايته، وفي الصدق والعدل تمامهما، وفي العلوم شمولها، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[1].

فهو كتابٌ منيعُ الجانب، عاليّ المكانة، محكمُ الكلمات، واسعُ الهدى، عظيم الأثر، فريد الأسلوب، فهو نور الرسالة وبرهانها، لو لم ييسره اللهُ لعبادهِ ما طاقت ألسنتُهم تلاوتهُ، ولا صدورُهم حفظهُ ، ولا عقولُهم هديه ، ولا جوارحُهم تحملُ معانيه ، قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [2] ، فهو كلام « لا يتسنى العروج إلى معارجه الرفيعة، ولا يتأتى الرقي إلى مدارجه المنيعة ؛كيف لا وأنه مع كونه متضمناً لدقائق العلوم النظرية والعملية، ومنطوياً على دقائق الفنون الخفية والجلية، حاويا لتفاصيل الأحكام الشرعية، ومحيطاً بمناط الدلائل الأصلية والفرعية، منبئاً عن أسرار الحقائق والنعوت، مخبراً بأطوار الملك والملكوت، عليه يدور فلك الأوامر والنواهي ، وإليه يستند معرفة الأشياء، كما هو قد نسج على أغرب منوال، وأبدع طراز واحتجبت طلعته بسبحات الإعجاز، طويت حقائقه الأبية عن العقول، وزويت دقائقه الخفية عن أذهان الفحول، يرد عيون العقول سبحانه، ويخطف أبصار البصائر بريقه ولمعانه »[3]، والكلام في هذا يطول، ولا تحتويه السطور ، ويكفي في بيان عظمته قوله تعالى لرسوله الكريم : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [4] .

الوجه الثاني : سعة علوم القرآن الكريم :

المفسر يدرس في كلام الله الذي لا تنقضي عجائبه، ولا تحيط العقول بعلومه، قال ابن أبي الدنيا ــ رحمه الله ــ : «وعلوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له»[5]، فهو ليس يتعلم في علم اكتملت فصوله، ودونت مباحثه، بل هو علم دوّن فيه الكثير من المؤلفات التي يحتاج فهمها إلى صبر عظيم، ووقت طويل من العمر، وما زالت هنالك كنوز وأسرار لم تظهر، ومعان لم تستفتح ، ودقائق لم تستنبط ، وحكم لم

([1]) النحل:٨٩

([2]) الحشر:٢١

(3) إرشاد العقل السليم ، أبو السعود (1 / 4) .

([4]) المزمل: ٥

(5) الإتقان في علوم القرآن (3/ 38) .

تكتشف ، وأوجه إعجاز لم تبرز ولم يفصح بها عالمٌ أو إمام ، فهو كتاب وارف الظلال، عذب الينبوع لا ينضب معينه، ولا يمكن الإحاطة بجميع معانيه على وجه الكمال والتمام ، قال سهل بن عبد الله التستري ــ رحمه الله ــ: «لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه ؛ لأنه كلام الله ، وكلامه صفته ، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه ، وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه ، وكلام الله غير مخلوق ولا تبلغ إلى نهاية فهمه فهوم محدثة مخلوقة»[1]. ومن هنا جعل الله تدبره واستخراج علومه مفتوح لكل الأجيال فتأخذ من علومه الواسعة بحسب وسعها وما يتيسر لها ؛ ولذا عدَّ العلماء كل ما استخرجه الناس من بعد النبي ﷺ والصحابة والتابعين من علوم التفسير ومعانيه .

الوجه الثالث : عِظم القول في القرآن بغير علم :

الكلامُ في تفسير القرآن الكريم هو الروايةُ عن اللهِ المحذر عباده من القول بغير علم في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[2]. قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله - : « الواجب على المسلم في تفسير القرآن أن يشعر نفسه حين يفسر القرآن بأنه مترجم عن الله تعالى ، شاهد عليه بما أراد من كلامه ، فيكون معظماً لهذه الشهادة ، خائفاً من أن يقول على الله بلا علم، فيقع فيما حرم الله، فيخزى بذلك يوم القيامة، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [3] »[4] .

ومن هنا نقلت روايات كثيرة عن السلف الصالح في تهيب التفسير والخوض فيه بدون علم لأنه الرواية عن الله، من ذلك :ما جاء عن أبي بكر الصديق ﷺ قوله :«

---

(1) البرهان في علوم القران (1 / 9) .

(2) الإسراء:٣٦

(3) الزمر:60

(4) تفسير القرآن ، محمد بن صالح العثيمين (1/ 22)

أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم»[1]، وما جاء عن سعيد بن المسيب ــ رحمه الله ــ :«أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال: إنا لا نقول في القرآن شيئا»[2]، وما جاء عن عبيد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع »[3]، وعن الشعبي عن مسروق ــ رحمه الله ــ قال:« اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله»[4]، قال ابن جرير بعد سرد هذه الروايات التي وردت عن السلف وغيرها في مقدمة تفسيره: «معنى إحجام مَن أحجم عن القيل في تأويل القرآن وتفسيره من علماء السَّلف، إنما كان إحجامه عنه حِذارًا أن لا يبلغ أداءَ ما كلِّف من إصابة صوابِ القول فيه، لا على أن تأويل ذلك محجوبٌ عن علماء الأمة، غير موجود بين أظهرهم»[5] . وقال الزركشي ــ رحمه الله ــ: «وكان جلة من السلف الصالح كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبي وغيرهما ، يعظمون القرآن ويتوقفون عنه تورعاً واحتياطاً لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم»[6]. وقال ابن كثير ــ رحمه الله ــ: «فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه.

فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه ، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ولا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه ، وهذا هو الواجب على كل أحد...» [7].

المطلب الثاني : صعوبات من جهة المصادر المُفَسِرة :

هنالك صعوبات كثيرة تواجه المفسر اليوم بسبب ما كتب في التفسير عبر القرون ، من أبرزها ما يلي :

أولاً : كثرة المأثور في التفسير بدون سند وتصحيح :

تفسير القرآن الكريم بالروايات المنقولة عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين، أمر

(1) انظر : جامع البيان في تأويل آي القرآن (1 / 92) ، وتفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (1 /63) .
(2) المصادر السابقة نفسها .
(3) المصادر السابقة نفسها .
(4) انظر : جامع البيان (1 / 92) ، وتفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (1 /63) .
(5) فتح القدير ، الشوكاني (1 / 13) .
(6) البرهان في علوم القرآن (1 / 25) .
(7) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (1 / 60) .

ضروري ومهم وطيب ؛ لأن ما أثر عنهم غنيمة وثروة لا استغناء عنه، ولكن ضمت كتب التفسير الكثير من الأحاديثِ والآثار الضعيفةِ والموضوعةِ، وبعضُها ذُكرَ بدون سندٍ وتخريج، وبعضُها نقلَ في سببِ النزول الكثير من الرواياتِ بدون تمحيصٍ، مما يتطلب معالجة كبيرة من المفسر « وكان الواجب جمع الروايات المفيدة في كتب مستقلة ، كبعض كتب الحديث وبيان قيمة أسانيدها ، ثم يذكر في التفسير ما يصح منها بدون سند ، كما يذكر الحديث في كتب الفقه ، ولكن يعزى إلى مخرجه»[1] حتى كانت هذه الروايات عقبة عن تدبر وفهم القرآن ، يقول محمد رشيد رضا ــ رحمه الله ــ :" أن أكثر ما روي في التفسير المأثور أو كثيره حجاب على القرآن ، وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية المزكية للأنفس المنورة للعقول ، فالمفضلون للتفسير بالمأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات التي لا قيمة لها سنداً ولا موضوعاً "[2] .

ولما كان جُل ما ورد عن النبي ﷺ ، وما ورد عن أصحابه مفسرًا لآي القرآن لم يصح سنده ، قال الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ : " ثلاثةٌ ليس لهَا إسْنَاد: التفسير والملاحم والمغازي " . يقصد بذلك أن الضعيف والمنكر والموضوع أضعاف ما ذكر من الصحيح[3] .

والصحيح من الروايات في التفسير المأثور فيه اختلاف وتباين ، بعضه من اختلاف التنوع الذي يحتاج إلى فقه في جمعه وتوفيقه ، وبعضه من اختلاف التباين

(1) تفسير المنار (1/ 13) .
(2) المصدر نفسه (1/ 13) .
(3) المصدر نفسه (9/ 906) .

والتعارض الذي يحتاج إلى دراسة يتم من خلالها الترجيح والاختيار حتى يكون خادماً للتفسير .

ثانياً : تنوعُ مشاربُ الفرق والعلماءِ الذين كتبوا في التفسير:

كل فرق الإسلام لهم كتابات في التفسير حتى أصبحت كتبُ التفسير تضمُ كلَّ عقائدِ الأمة وأفكارها من معتزلةٍ ورافضةٍ وأشاعرةٍ ومتصوفةٍ وغيرهم ممن كتبوا في التفسير، وحاولوا أن يستدلوا بالقرآن على بدعهم وانحرافاتهم العقدية حتى تقبل دعوتهم ، مستخدمين في ذلك طرقاً ملتوية في التفسير، منهم من كان واضحاً في مسلكهِ، ومنهم من دسَّ عقيدتَه دساً حتى أتعبَ العلماءَ في استخراجِها، كما فعل الزمخشري ــ رحمه الله ــ قال سراج الدين البلقيني ــ رحمه الله ــ وقد صنف الكشاف على الكشاف: «استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش من قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[1] قال: أيُّ فوز أعظم من دخول الجنة ؟! أشار إلى عدم الرؤية »[2]، وقال ابن تيمية ــ رحمه الله ــ محذراً من هذا: « وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَكُونُ حَسَنَ الْعِبَارَةِ فَصِيحًا وَيَدُسُّ الْبِدَعَ فِي كَلَامِهِ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ كَصَاحِبِ الْكَشَّافِ وَنَحْوِهِ، حَتَّى إنَّهُ يُرَوِّجُ عَلَى خَلْقٍ كَثِيرٍ مِمَّنْ لا يَعْتَقِدُ الْبَاطِلَ مِنْ تَفَاسِيرِهِمْ الْبَاطِلَةِ مَا شَاءَ اللَّهُ . وَقَدْ رَأَيْت مِنْ الْعُلَمَاءِ الْمُفَسِّرِينَ وَغَيْرِهِمْ مَنْ يَذْكُرُ فِي كِتَابِهِ وَكَلَامِهِ مِنْ تَفْسِيرِهِمْ مَا يُوَافِقُ أُصُولَهُمْ الَّتِي يَعْلَمُ أَوْ يَعْتَقِدُ فَسَادَهَا وَلَا يَهْتَدِي لِذَلِكَ »[3].

([1]) آل عمران: 185

(2) الإتقان في علوم القرآن (60/3).

(3) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية (13 /358) .

ثالثاً : تنوعُ اهتماماتُ العلماءِ الذين كتبوا في التفسير:

كتابات العلماء في التفسير تنوعت في اتجاهاتها ، وهذا التنوع مع ما فيه من إيجابيات لكنه أبعد التفسيرَ أحياناً عن مقاصدهِ ، وصعَّب على طلابِ العلم نيلَ مرادهم منه، بسبب ما جاء في كتبِ التفسير من تفريعاتٍ صرفت همَمَ الناس عن هدايات الآيات من ذلك: منهم من اعتنى بأسلوب القرآن وبلاغته كالزمخشري في كشافه وفرَّع وفصَّل فيه . ومنهم من اعتنى بالإعرابِ وما يحتملُه اللفظُ من وجوهٍ نحويةٍ حتى كأن القرآنَ نزلَ لهذا كما فعلَ الزجاجُ في تفسيرهِ "معاني القرآن"، والواحدي في "البسيط"، وأبو حيان الأندلسي في تفسيره "البحر المحيط". ومنهم من وجه عنايتَه إلى أخبار وقَصَص الأمم السالفة وتوسعَ في ذلك، ونقلوا الصحيح والسقيم، وأدخلوا إسرائيلياتٍ كثيرة في التفسير كما فعلَ الثعالبي والخازن.

ومنهم من توسع في الأحكامِ الشرعيةِ من عباداتٍ ومعاملاتٍ حتى أخذ التفسيرُ طابعُ الفقه كابن العربي والقرطبي وغيرهما . ومنهم من توسعَ في علمِ الكلامِ وأصول الاعتقاد والردِ على المنحرفين الزائغين ومحاجةِ المخالفين وملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة ، كما فعلَ الرازي ، ومن هنا تضخمت كتب التفسير، وصَعُبَ على الطالبِ نيلَ مرادهِ في الوصول لهدايات النص القرآني. يقول الأستاذُ محمد رشيد رضا ــ رحمه الله ــ: « كان من سوءِ حظِ المسلمين أن أكثرَ ما كُتبَ في التفسير يشغلُ قارئَه عن هذهِ المقاصدِ العالية، والهداياتِ السامية، فمنها ما يشغلُه عن القرآن بمباحثِ الإعراب وقواعدِ النحو ونكتِ المعاني ومصطلحاتِ البيان، ومنها ما يصرفُه عنه بجدل المتكلمين، وتخريجات الأصوليين، واستنباطاتِ الفقهاءِ المقلدين وتأويلاتِ المتصوفين، وتعصبِ الفرق والمذاهبِ بعضُها على بعض، وبعضُها يلفته عنه بكثير الروايات، وما مزجت به من خرافاتِ الإسرائيليات، وقد زادَ الرازيُّ صارفاً آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيرهِ من العلومِ الرياضية والطبيعيةِ وغيرها من العلوم الحادثة في الملةِ على ما كانت عليه في عهده»[1].

رابعاً : كثرةُ الاختلافاتِ الموجودةِ في كتبِ التفسير:

اختلفت أقوال العلماء كثيراً في الأحكام والهدايات المستنبطة من الآية ، منها ما هو من اختلافِ التنوع الذي يحتاجُ إلى فقهٍ في فهمهِ والتعامل معه ، ومنه ما هو من اختلاف التضاد الذي يحتاجُ إلى ترجيحٍ واختيارٍ بعدَ موازنةٍ ونظرٍ وتحقيقٍ وأخذٍ وردٍ ، يتطلب ذلك صبرا جميلاً ودربة على نَفَسِ العلماءِ في التحقيق والتقصي مع تجرد

(1) تفسير المنار ، محمد رشيد رضا (13/1) .

وإخلاص وعفة في المناقشة لا يوفق إليه كل أحد ، إضافة إلى دراسة اختلافات المفسرين أسبابها وأنواعها وفقه التعامل معها قبل الخوض في التفسير، وهو من الأمور الضرورية التي لا غنى لدارس التفسير عنها ؛ لمعرفة المنهج القويم في التعامل مع الأقوال المتعددة المتنوعة التي وردت في كتب التفسير، وقد فصل العلماء في مؤلفات خاصة في ذلك تفصيلاً قيماً ينبغي الرجوع إليها، والإفادة منها ، وبينوا كيف يؤدي عدم إدراك ذلك إلى التخبط في التفسير[1].

خامساً : كثرة الدخيل في كتب التفسير:

فقد ضمت كتب التفسير الكثيرُ من الإسرائيلياتِ القادحة التي تساهلَ العلماءُ في نقلها، وبعضُهم فتحَ المجالَ واسعاً للتفسير بالرأي بدون ضوابط فجاءت كتبُهم محتويةٌ على الكثير من الأقوال الشاذةِ والأفكار المنحرفة والاجتهاداتِ غير الموفقة لمخالفتِها لبعضِ الأدلة أو اللغةِ خاصة التي وردت عن بعض أهل الأهواء مما يحتاجُ إلى قراءة واعية مع تدبر عميق ، قال ابن القيم ــ رحمه الله ــ : « كثير من المفسرين يأتون بالعجائب التي تنفر عنها النفوس ويأباها القرآن أشد الإباء ... ثم قال بعد ذكر عشرات الأمثلة : وأضعاف أضعاف ذلك من التفاسير المستنكرة المستكرهة التي قصد بها الإغراب والإتيان بخلاف ما يتعارفه الناس ... مما لو تتبع وبين بطلانه لجاء عدة أسفار كبار »[2] ،وقد اعتنى بعض العلماء ببيان الأقوال الشاذة والخاطئة في التفسير ومن الدراسات المفيدة في ذلك: بدع التفاسير للشيخ عبد الله محمد الصديق الغماري، والاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم : دوافعها ودفعها للدكتور محمد حسين الذهبي، والأقوال الشاذة في التفسير نشأتها وأسبابها وآثارها للدكتور عبد الرحمن بن صالح الدّهش ، فقد جاء فيها ما يجعل الدارس يكون فطناً في هذا الجانب .

سادساً: الأساليبُ التي كتبت بها التفاسيرُ المختلفة:

كُتِبت التفاسير عبر العصور الممتدة بأساليب متنوعة من حيثُ اللغةِ والأسلوبِ وكيفيةِ العرض والتناول بما يتناسب مع أهل كل عصر، ويسهل عليهم فهمها، والذين صاغوها في كل عصر ومصر علماء ملكوا ناصية البيان ، وانفردوا على أهل زمانهم في العلم والفقه وتقرير وتحرير الأحكام ، فأصبحت بعضُ العباراتِ والمصطلحات مشكلةٌ اليوم تحتاجُ إلى تفسير وبيان ، وبعضُ الأساليب ربما كانت جافة على أذواقِنا ومسامعِنا، وبعضُها يحتاجُ إلى دربةٍ للتعودِ عليها ، فمنهم من

(1) انظر : مجموع الفتاوى لابن تيمية (333/13) ، واختلاف المفسرين للدكتور سعود بن عبد الله الفنيسان.

(2) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (2/ 696).

اختصر حتى اكتفى بتفسير الغريب، ومنهم من غاصَ في الدقائق والعميق التي أشكلت حتى على العلماء ، ومن أراد أن يعايش ذلك فليقرأ فقط في مقدمة الطبري أو الزمخشري، أو أبي حيان الأندلس، أو القرطبي ، أو البيضاوي ، أو أبي السعود ، أو الألوسي ، أو ابن عاشور ليعلم البون الشاسع بيننا وبينهم علماً وهمة ، مما يتطلب على دارس التفسير الإلمام بمصطلحات هذا العلم ، والتدرب على قراءة هذه المؤلفات العظيمة، التي جمعت دراً عظيمة ، وتركوا فيها آثاراً جميلة ، تقر بها العيون، وتتشنف لها الآذان، وتنشر لها الصدور، ولكن الوصول إلى فهم ذلك ليس متيسر لكل العقول .

سابعاً : توقف التفسير عند بعض المفسرين في الوسائل :

غاية التفسير الوصول لهدايات القرآن الكريم ، ولكن المؤسف حقاً في واقع بعض كتب التفسير جعل بعضهم الوسائل غايات أو صرف جل اهتمامه في الأدوات والوسائل ، فوقفت جهود بعض المفسرين عند إعراب الكلمات ، وبيان الاستعارات التي هي وسائل لتذوق جماليات القرآن وتدبره ، بل ضخمت حتى صارت موانع وحواجز بين المسلم وفهم كتاب الله تعالى ، وهذا ما جعل محمد رشيد رضا ــ رحمه الله ــ يقول: « التفسير قسمان: أحدهما : جافٌّ مبعد عن الله وكتابه ، وهو ما يقصد به حل الألفاظ ، وإعراب الجمل ، وبيان ما ترمي إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية ، وهذا لا ينبغي أن يسمى تفسيراً، وإنما هو ضرب من التمرين في الفنون كالنحو والمعاني وغيرهما.

وثانيهما: وهو التفسير الذي قلنا: إنه يجب على الناس على أنه فرض كفاية. وهو الذي يستجمع تلك الشروط لأجل أن تستمل لغاياتها، وهو ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول ، وحكمة التشريع في العائد والأحكام . على الوجه الذي يجذب الأرواح ، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام ليتحقق فيه معنى قوله

"هدى ورحمة" ونحوهما من الأوصاف. فالمقصد الحقيقي وراء كل تلك الشروط والفنون: هو الاهتداء بالقرآن »[1].

المطلب الثالث : صعوبات من جهة أدوات المُفسِر :

المفسر يقوم بأعظم مهمة علمية على وجه الأرض، فهو يقوم مقام الأنبياء فيعلم الناس كلام الله الباهر الذي حوى كل العلوم، قال الزركشي ــ رحمه الله ــ: « وكل علم من العلوم منتزع من القرآن وإلا فليس له برهان»[2]، فدراسة التفسير تحتاج إلى مؤهلات علمية وعملية عالية ، خاصة لمن أراد التوسع في هذا العلم، مما لا يتوفر إلا في القليل النادر من الناس، فهو يحتاج أن يكون ملماً بالعلوم الخادمة للقرآن أو التي دل عليها من: علوم اللغة، وعلوم القرآن، وعلم العقيدة، وعلوم السنة ، وعلم الفقه وأصوله ، وعلم البلاغة ، وتكون له ملكة الاستدلال ، ودقة الفهم، والقدرة على الترجيح والجمع بين الأقوال، مع تجرد من الهوى، وإخلاص في القول، واستقامة في التدين، وغيرها من شروط أكثر من ذكرها العلماء ، وفي ذلك يقول الزركشي ــ رحمه الله ــ:«اعلم أنه لا يحصُلُ للناظر فهمُ معاني الوحي ولا يظهرُ له أسرارُهُ وفي قلبه بدعةٌ، أو كبرٌ، أو هوى، أو حبُّ الدنيا، أو وهو مُصِرٌّ على ذنبٍ، أو غير متحققٍ بالإيمان ، أو ضعيفُ التحقيق ، أو يعتمدُ على قول مُفَسِّرٍ ليس عنده علمٌ ، أو راجعٌ إلى معقولِهِ ، وهذه كلُّهَا حُجُبٌ وموانعُ بعضُها آكدُ من بعض»[3]. ويقول الزمخشري ــ رحمه الله ــ وهو يتحدث عن مؤهلات المفسر: «إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما

(1) تفسير المنار (1/ 25، 26) .
(2) البرهان في علوم القرآن (1/ 6) .
(3) البرهان في علوم القرآن (2/180- 181).

يبهر الألباب القوارح من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق مسلكها، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم ، كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن ، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن بَزَّ أهل الدنيا في صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القِرّية أحفظ ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه ، واللُّغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما : علم المعاني ، وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حُجَّة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ ، جامعاً بين أمرين : تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات ، طويل المراجعات ، قد رَجَعَ زماناً ورُجِعَ إليه ، ورَدَّ ورُدَّ عليه ، فارساً في علم الإعراب، مقدَّماً في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقَّادها، يقظان النفس، دراً كاللمحة وإن لطف شأنها، منتبهاً على الرمزة وإن خفى مكانها، لا كزَّاً جاسياً، ولا غليظاً جافياً، متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضاً غير ريض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يُرتَّب الكلام ويُؤلَّف، وكيف يُنظَّم ويُرصَّف، طالما دفع إلى مضايقه . ووقع في مداحضه ومزالقه»[1].

(1)الكشاف عن حقائق الترتيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (1/ 42) .

ويقول البيضاوي ــ رحمه الله ــ :« فإن أعظم العلوم مقدارا وأرفعها شرفا ومنارا علم التفسير الذي هو رئيس العلوم الدينية ورأسها ومبنى قواعد الشرع وأساسها لا يليق لتعاطيه والتصدي للتكلم فيه إلا من برع في العلوم الدينية كلها أصولها وفروعها ، وفاق في الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها »[1] ، وغيرها من كلام كثير يطول به النقل .

الخاتمة :

من خلال الدراسة السابقة التي قصد الباحث من خلالها بيان شرف علم التفسير وأهميته ووعورة مسلكه ، توصل الباحث للنتائج والتوصيات الآتية :

أ/ نتائج البحث :

من خلال هذه الدراسة توصل الباحث للنتائج للآتية :

[1] علم التفسير هو أشرف العلوم على الإطلاق تعلماً وتعليماً لتعلقه بفهم كلام الله الذي يوصل لكل فلاح دنيوي وسعادة سرمدية ، وبه تدرك بركة القرآن وخيره وفضائله ، ويتحقق الهدى ، ويزيد الإيمان ، وتنزل الرحمات .

[2] وجوب تعلم معاني القرآن الكريم ، وهو المقصد الذي صيغت ألفاظ القرآن لأجله ؛ ولذلك خاطب الله به قوم يعقلون ويعلمون ويفقهون ويتفكرون .

[3] قراءة القليل من القرآن الكريم بفهم وتدبر أفضل وأكمل من كثرة التلاوة بدون فهم وتدبر، ولو كان ذلك لختمة كاملة .

[4] هدي النبي ﷺ والسلف الصالح مع القرآن الكريم كان قائماً على فهم المعنى والعمل به ، ولا يتجاوزون آية إلا بعد معرفة ما فيها من علم وعمل ، بل كانت رغبتهم في تعلم معانيه أعظم من رغبتهم من تعلم حروفه , وبذلك تحققت لهم سعادة الدارين .

[5] أن أهل القرآن هم التالين لألفاظه ، الذين فقهوا معانيه ، وعملوا بأحكامه .

[6] من صفات عباد الرحمن في كل زمان فهم كتابه وتعظيمه والعمل به ، ومن صفات عباد الشيطان جهلهم لمعانيه ، وبعدهم عن تدبره .

---

(1) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، البيضاوي (1/ 1).

[7] أن فهم القرآن وتدبره وفق المنهج الذي رسمه أهل العلم من أعظم الأسباب العاصمة من مصائد الشيطان وخطواته ، وأن عدم الفهم السليم سبب كل ضلال مبين

[8] وجوب الاستشفاء بهدي القرآن الكريم في معالجة ما تعانيه الأمة اليوم من علل وأمراض وأزمات ومشاكل ، من خلال تدبره والعمل به ، وأن حاجة البشرية للقرآن تزيد ولا تنقص فهو روح يحي ، ونور يهدي في ظلمات الحياة.

[9] هجر القرآن الكريم من أعظم الذنوب، ومن أعظم أنواع الهجر هجر تدبره وتفهم معانيه ، وكل معرض عن فهمه وتدبره من الهاجرين له وإن تلاه آناء الليل وأطراف النهار .

[10] كل ما ورد في فضل تعلم القرآن الكريم لا يتحقق للعبد دون فهمه لمعانيه .

[11] هنالك صعوبات كثيرة تواجه دارس التفسير اليوم بعضها متعلق بالمصدر المفسر ، وبعضها متعلق بمصادر التفسير، وبعضها متعلق بالمفسر .

[12] صعوبة تعلم التفسير المتعلقة بالكلام المفسر تظهر من خلال عظمة الكلام المفسر، فهو كلام الله الذي أتمه صدقاً وعدلاً ، وجعله برهاناً ومعجزة تدل على صدق الرسالة فقد بلغ في البلاغة نهايتها وفي الحسن غايته ، وأن علومه واسعة لا تنتهي ، وعجائبه كثيرة لا تنقضي ، والكلام فيه هو الرواية عن الله .

[13] الصعوبات التي تتعلق بالتفسير من جهة المصادر التي فسرته ، تتلخص في تنوع الفرق والاتجاهات التي تناولت التفسير، مع كثرة ما في مصادره من اختلافات، إضافة إلى ما حوته كتب التفسير من الأحاديث الموضوعة والضعيفة، والأقوال الشاذة ، والأمور المنكرة ، هذا مع اختلاف الأساليب التي كتبت بها كتب التفسير عبر القرون ، وتوقف التفسير عند بعض المفسرين في الأدوات والوسائل مع عدم الاهتمام بجانب الهدايات .

[14] الصعوبات التي تتعلق بالمفسر ناتجة من حاجة المفسر لكل العلوم الأخرى إضافة لكثرة الأدوات التي يحتاجها المفسر حتى يحسن التعامل مع كلام الله تعالى .

توصيات البحث :

من خلال تلك النتائج السابقة يوصي الباحث بما يلي :

[1] التأكيد من خلال المنابر والدروس والمحاضرات وغيرها على كل تالٍ لكتاب الله أن يكون همه تدبر المعنى وليس كثرة التلاوة بدون فهم وتدبر ، وأن توقف تعلم القرآن عند تعلم الحروف خلل في الأمة يجب علاجه بكل الوسائل المتاحة .

[2] ربط تعلم أحكام الدين بالقرآن الكريم كما هو هدي السلف، وربط الفقه بمنهج الاستدلال حتى ترسخ المعاني وتأخذ الأحكام حقها في القداسة.

[3] الاهتمام بتعليم اللغة العربية حتى يسهل فقه الكتاب والسنة لأبناء الأمة .

[4] إنشاء مراكز تدريب في كل مدينة تقوم بتدريب الناس على كيفية التدبر والفهم ، ويعمل على إعادة النظر في كثير من الأساليب التي يدرس بها التفسير في مؤسساتنا التعليمية حتى يكون على أفضل طريقة تليق بمكانة القرآن ومنزلته وأهميته في حياتنا.

[5] بذل الجهود التي تقلل من الصعوبات التي تتصل بمصادر التفسير ، وذلك من خلال القيام بدراسات وتحقيقات دقيقة وفاحصة في الجهود السابقة المدونة في التفسير ، وإبراز ما فيها من إيجابيات والتنبيه بصورة واضحة على ما فيها من سلبيات .

[6] قيام مؤسسات علمية متخصصة في تدبر القرآن الكريم واستخراج علومه ترعى مشروعات علمية جادة في خدمة التفسير ، وتسهم بكتابة تفسير يراعى فيه منهجية متفق عليها في دراسة التفسير ، تحقق الشمول والدقة ، وتلبي حاجة العصر، وتذلل فيه الكثير من الصعوبات الموجودة في كثير من كتب التفسير

[7] حث وسائل الإعلام للاهتمام بنشر ثقافة شرف علم التفسير وأهميته ووعورة مسلكه ، يكون في سلم أولويات كل متعلم للدين ، وحتى تقبل عليه العامة من الناس ببصيرة وصبر مع الحذر في القول على الله بغير علم .